سورة المطففين

سورة المطففين من السور المكية.

ومن مقاصد هذه السورة:

المقصد الأول: بيان العلاقة الوثيقة بين العقيدة والسلوك، والإيمان والقيم: فهي تعالج ظاهرة سيئة عند المخاطبين، وهي تطفيف الميزان، وقد يبدو لبعض الناس أن مثل هذا الانحراف، من الأمور الفرعية التي ليس هذا أوان بحثها، وعلاجها، لكن إيراد هذه القضية، ومعالجتها في القرآن المكي، دليل على الصلة الوثيقة بين العقيدة القلبية، والسلوك العملي، وبين الإيمان، والقيم الخلقية .

المقصد الثاني: تصنيف الناس إلى فريقين؛ الأبرار، والفجار، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وإلى حزبين؛ حزب الله، وحزب الشيطان، وإلى سعداء، وأشقياء.

المقصد الثالث: ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من النعيم، والعذاب.

المقصد الرابع: طمأنة المؤمنين بأن العاقبة للتقوى: وما أحوج المؤمنين في العهد المكي، إلى هذا المعنى، وهم في مرحلة الاستضعاف، والاستذلال، والأذى.

[وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾]

[وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾]: هكذا تستهل السورة بهذا الوعيد الشديد. وكلمة [وَيْلٌ] في اللغة كلمة وعيد، وعذاب. وقيل إنها اسم لوادٍ في جهنم، ولكنها بالمعنى الأعم تدل على الوعيد والعذاب .

[ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾]: هذا هو تفسير التطفيف، يعني أنهم إذا أرادوا أن يأخذوا الكيل لأنفسهم استوفوا حقهم تاماً، [وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ] يعني أنهم إذا كالوا للناس، أو وزنوا للناس، نقصوهم وبخسوهم حقهم. فالتطفيف، إذاً عبث بالمكاييل والموازين؛ إما بأخذ زيادة على المستحَق، وإما بنقص من الحق. وكلا الأمرين يحصل لكثير

من الناس أثناء البيع والشراء.وقد قيل إن هذه السورة، أو صدرها على الأقل نزل في أول العهد المدني، روي ذلك عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ حين قدم المدينة، كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً، فنزلت هذه الآيات، وقيل غير ذلك. والغالب، والله أعلم، أنها سورة مكية بجميع آياتها، وأن التطفيف، كان موجوداً لدى أهل الجاهلية. ونلحظ، أيضاً، أن القوم من أصحاب الاحتكار، يضطرون الناس إلى القبول بهذا الميزان المجحف؛ لحاجة الناس إليهم، فإن الناس يأبون أن يبخسوا أشياءهم، ولكنهم مضطرون إلى القبول. وهذا ما ينطبق انطباقاً كبيراً على حال الاقتصاد العالمي اليوم، فإنه يقع فيه التطفيف، وإلجاء الناس، بطرق الاحتكار المختلفة، إلى أن يقبلوا بالضيم، لينالوا حصتهم، وما يحتاجون إليه، فيتلاعب التجار الجشعون بالأسعار، ويرفعونها ليمتصوا دماء الفقراء. ولا حيلة للفقراء، إلا أن يبذلوا أموالهم؛ لأن هذه المواد، قوام حياتهم. فمسألة التطفيف لا تقتصر فقط على هذه الصورة البسيطة؛ أن ينقص من الوزن، أو أن يستوفي لنفسه، بأن يزيد قدر كف من طعام، أو نحوه.

وقد كان هذا الوصف الذميم، أعني بخس الناس أشياءهم موجوداً لدى أمة عذبت، وهي مدين، الذين بعث فيهم شعيب، عليه السلام، فكان يقول لهم [وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾] {هود:٨٤}، فهذا الأمر كان موجوداً في الأولين، ولا يزال موجوداً في الآخرين. وحين وقع العالم بأجمعه، في هذه القرون الأخيرة، في قبضة الاقتصاد اليهودي الربوي، فشت هذه المظاهر، وصار الناس أسرى لهذه المظالم، فلا يخفى أن الاقتصاد العالمي، اليوم، اقتصاد ربوي، وضع نظرياته، وآلياته، اليهود، وساقوا العالم بأجمعه على قانونه، وصار الربا فاشياً، شائعاً في جميع الأمم. وهذه الشريعة الغراء جاءت بتحريم الربا، حتى إنك لا تكاد تجد من الكبائر ما ورد فيه وعيد وتهديد في كتاب الله، كما ورد في الربا. وهذا يدلنا على كمال هذه الشريعة، وأنها منذ بزوغها كانت تهدف إلى إصلاح القلب، وإصلاح الحياة معاً، فلا يقال إن شريعة الإسلام

تصلح السرائر وحسب، بل تصلح السريرة، والعلانية، تصلح الفرد، وتصلح المجتمع .
فلأجل ذا وقع التنبيه على هذا الانحراف في العهد المكي.

ومن المفسرين من وقف على (كَالُوا)، و (وزنوا) فقرأ : "وإذا كالوا، هم يخسرون وإذا وزنوا، هم يخسرون" فعلى القراءة المشهورة، تكون متعدية، ومكتفية بذاتها، وعلى قراءة الوقف على "كالوا" تكون "هم" ضمير، من الكائل، والوازن. والأولى حسبانها كلمةً واحدة، ومما يدل على ذلك أن ألف الجماعة لم ترسم في المصحف بعد "كالو" و "وزنو".

[أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤]: استفهام إنكاري [أَلَا] أداة تنبيه، والمقصود بها التوبيخ، والتبكيت، [يَظُنُّ] بمعنى يستيقن، وإلا فربما يطيف بقلوبهم طائف، أنه ثم بعث، لكن القوم لم يستيقنوا، ولو استيقنوا، لاستقام سلوكهم، لكن لا يقين عندهم ، بل هم إما منكرون للبعث، وإما متشككون فيه، ومعنى [مَّبْعُوثُونَ]: أي مخرجون من قبورهم أحياء .

[لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦]: يا لها من موعظة! ويا له من زجر! هذه الموعظة ينتفع بها المؤمن، وإن كانت في الأصل موجهةً إلى الكافر. فأنت إذا وعظت غيرك، وعظت نفسك. قل لنفسك، كما قال الله : ألا تظن أنك مبعوث ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين! ؛ لأن غالب ما يقع منا من التقصير، والمعصية،والغفلة، وظلم النفس، وظلم الآخرين، إنما هو ناتج عن ضعف اليقين بالآخرة، ولو كان اليقين بالآخرة قائماً في القلب دائماً، لاكف الإنسان عن كثير من المعاصي والمظالم، لكن القلب يذهل عن ذلك الموعد الحق، فإذا غاب عن باله البعث، واليوم الآخر، والجنة، والنار، صار يطأ السهل، والوعر، ويجترح السيئات، ويقترف المعاصي؛ لغياب هذا الرادع عن قلبه.

فمن أعظم أسباب الموعظة، أن يعظ الإنسان نفسه باليوم الآخر، ودعك من أقوام يقولون: لا فائدة من المواعظ، المهم الإقناع بالعقل! لابد من الإقناع العقلي، ومن تحريك الوجدان والموعظة. كم من إنسان تحصل له القناعة العقلية بصحة كذا، وخطأ كذا، لكنه لا ينقاد لمقتضى العقل! فلابد من الجمع بين الأمرين. ولهذا قال الله تعالى : [ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ] {النحل:١٢٥} فالحكمة: الأمر المحكم الذي يقطع العقل بصوابه، والموعظة: ما يلامس القلب، ويستجيش الوجدان. فجاء هذا التهديد لهؤلاء المطففين، باليوم الآخر الذي ترتعد الفرائص عند ذكره، تقول فاطمة بنت عبد الملك، زوج عمر بن عبد العزيز، رحمهما الله: " ...لقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفضُ كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليهِ اللحاف رحمة له"[1] هكذا القلب المؤمن باليوم الآخر، يردعه إيمانه عن كثير من المحرمات، والشبهات، والمكروهات، وخلاف الأولى.

وإنما سميت القيامة قيامة، لأسباب منها: هذا [يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ]، أي أنهم يبعثون من قبورهم أحياءً، ينتصبون على أقدامهم، حفاة، عراة، غرلاً، [لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ]: يعني للوقوف بين يديه، والحساب، والجزاء الذي يفضي إلى جنة أو نار.

ومنها: قيام الأشهاد، قال الله تعالى[إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾] {غافر:٥١} .

ومنها: إقامة الموازين قال تعالى : [وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ] {الأنبياء:٤٧}.

والربوبية نوعان: الربوبية عامة: وهي التي تشمل جميع الخلق[ٱلۡعَٰلَمِينَ]. لأن (عَالَمِينَ) جمع عالَمَ وهو كل من سوى الله من إنس، أو جن، أو طير، أو وحش، أو ملك. فالربوبية العامة معناها أن الله سبحانه وتعالى خلقهم، ورزقهم، ودبر أمورهم. وأما الربوبية الخاصة: فهي ربوبيته سبحانه وتعالى لأوليائه المؤمنين، وذلك باللطف بهم، وتيسير أمورهم، وحفظهم في دينهم، ودنياهم،ويمكن أن نضيف ربوبية خاصة الخاصة: وهي ربوبيته للأنبياء والمرسلين، وأخصهم نبينا ﷺ، فإن ربوبيته لهم أخص ما يكون.

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: ذم التطفيف، وتوعد فاعليه.

---

[1] البداية والنهاية (٩/٢٢٩) إحياء التراث.

الفائدة الثانية: منافاته للعدل والإنصاف.

الفائدة الثالثة: التهديد، والموعظة باليوم الآخر.

الفائدة الرابعة: إثبات البعث والقيامة الكبرى.

الفائدة الخامسة: ربوبية الله العامة [يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦].

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧]

[كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧]: ابتدأ الله تعالى بذكر هؤلاء أولاً، لأن الحديث كان عن أشكالهم، وهم المطففون فناسب قرنهم بهم، قبل ذكر الأبرار. وكلمة (كلا) كلمة ردع وزجر ، والمعنى: ليس الأمر كما تعتقدون وتظنون من إنكار البعث. وقال بعض المفسرين إنها في مثل هذا السياق معناها: "حقاً". وإلى هذا ذهب السيوطي، رحمه الله، فجعلها نوع إثبات.ومعنى (كتاب) أي مكتوب،وأصل الكتْب في اللغة: الجمع، ومنه قولهم: "تكتب بنو فلان" يعني: تجمعوا، وقولهم "كتيبة" لجماعة الخيل. فدل ذلك على أن المراد بكتاب الفجار الديوان الذي يجمع هؤلاء الفجار. وقد تقدم أن "الفجار" هم الذين هتكوا ستر الدين بالكفر، والفسوق، والعصيان؛ لأن الفجْر بمعنى الهتك.

[لَفِى سِجِّينٍ]: قيل في معنى (سجين) أنها الأرض السابعة، أو موضع في أسفل الأرض، يقال له سجين. وأصل اشتقاقه من السجن، وهو الحبس في مكان ضيق حرج، ومما يؤيد أن سجين موضع في أسفل سافلين، في الأرض السابعة، ما جاء في حديث نزع الروح، أنه إذا قبضت روح العبد الكافر (يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ] {الأعراف: ٤٠} فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ

السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: [حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾] {الحج:٣١}) رواه أحمد في المسند[٢] . فهذا يؤيد هذا المعنى المأثور عن بعض السلف .

[وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾]: المراد بهذا السؤال التعظيم، والتهويل. وكثيراً ما يرد في القرآن العظيم السؤال عن الشيء بقصد التعظيم، كقول الله تعالى: [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾] {الانفطار:١٧}، وقوله: [وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾] {الحاقة:٣}، فمثل هذا الأسلوب يلفت الانتباه، ويعظم المقام .

[كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾]: يعني ذلك الكتاب الجامع لأعمالهم، وحالهم، مرقوم، أي مختوم، مفروغ منه، لا يزاد فيه، ولا ينقص. عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟ فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ، وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا) رواه الترمذي[٣]

وسمي مرقوماً، تشبيهاً له بالرقم في الثوب، والرقم في الثوب، يعني الخط، أو العلم الذي يكون في القماش، يكون ثابتاً فيه، لا يذهب منه. فالمرقوم هو المخطوط، أو المكتوب .

[وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾]: وكلمة [وَيْلٌ] تقدم معناها، والمكذبون هنا هم المكذبون بالبعث؛ لأنه قد قال [أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾] فهذا الإنكار أو الشك هو الذي أوردهم المهالك .

---

[٢] المسند (١٨٥٣٤) صحح إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط.

[٣] سنن الترمذي (٢١٤١) حسنه الألباني.

[ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾]: كما قال: [زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي] {التغابن:٧} ، هذه من المفاصل التي كانت بين النبي ﷺ، وبين الكفار. ومعنى (الدين) أي الجزاء .

[وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾]: هذا مثال للترابط بين العقيدة الباطنة، والسلوك الظاهر؛ فمن غلب عليه العدوان، والإثم، صار قلبه أغلفاً، لا يقبل الحق ولا يرضاه، بل يستثقله ويأباه. ومعنى [مُعۡتَدٍ] أي متجاوز الحد من العدوان، و[أَثِيمٍ]: صيغة مبالغة على وزن فعيل، يعني والغ في الإثم، وهو ارتكاب المحظور.

ووجه الترابط بين العدوان والإثم، وبين إنكار البعث، أن الذي يسرف على نفسه بالمعاصي، والذنوب، وظلم الآخرين، يقلقه، ويزعجه، أن يقال له: إن من ورائك يوم آخر، يجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. فلذلك ينزع إلى نبذ هذه العقيدة، وإقصائها، ودفعها. ولهذا كان أصحاب الشهوات، المسرفين على أنفسهم، يدخل عليهم شك عظيم في هذا الباب؛ لأن الشهوات تلقح الشبهات.

[إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾]: تتلى عليه آيات بينات، تخضع لها الرقاب، وتعلم العرب، وهم أهل الفصاحة، والبلاغة، أن هذا القول قول كريم، لا يستطيعون الإتيان بمثله، ومع ذلك: [وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ] {الأنعام:٢٦} ينهون عنه أتباعهم أن يصغوا إليه، وينأون عنه بأنفسهم لئلا يخضعوا لسلطانه!

وأساطير جمع أسطورة، بضم الهمزة، أو إسطارة، بكسر الهمزة، والمقصود بها الحكايات المسطورة، القديمة. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال أنا والله يا معشر قريش

أحسن حديثا منه فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثا مني[٤].

يظن أن المسألة ترويج أساطير، وحكايات، ونحو ذلك، وشتان شتان! هذا الكتاب ليس كتاب أقاصيص، أو تسالي، وإنما يتضمن من الحقائق العظيمة، الثقيلة ما تحيا به القلوب ، وتصح به العقول.

[كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾]: (كَلاَّ) تقدم معناها، [بَلْ ۜ رَانَ]: أي غطى، وغشى، وغمر. وهذا شاهد ثالث للعلاقة الوثيقة بين القلب والسلوك. فهذا الكسب الذي كسبوه بالتطفيف، كون على قلوبهم طبقة صلبة، فصارت قلوبهم بسبب كسبهم للمال الحرام، وتكذيبهم بالحق، كالحديد إذا صدأ. فهؤلاء الذين يكسبون الآثام، والعدوان، والمال الحرام، يقع على قلوبهم (الران) . وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، ﷺوَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ. وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: [كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾])رواه الترمذي[٥] .

ودون الران، الغان، ويدل عليه قول النبي ﷺ: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)رواه مسلم[٦]، وذلك أن المؤمن بحكم بشريته، ربما أدركته غفلة، لكن هذه الغفلة قشر رقيق، ما أن يذكر الله ﷻ ، حتى تتقشع. أما الران فهو طبقة سميكة؛ تنشأ عن تراكم النكت السوداء، حتى لا ترى حقاً، ولا تسمع حقاً. جاء في حديث حذيفة بن اليمان، ﷺ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ،

---

[٤] السيرة لابن هشام (١٣٨/٢)، البداية والنهاية (١١٠/٣) .

[٥] سنن الترمذي (٣٣٣٤)، قال حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني.

[٦] صحيح مسلم (٢٧٠٢).

حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)رواه مسلم[٧] .

[كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾] : (يومئذ) أي يوم القيامة، (عن ربهم) هذه ربوبية عامة، (لمحجوبون)أي محجوبون عن كرامته، ونعمته. وأعظم النعم التي يحجبون عنها النظر إلى وجه الله الكريم. وهذه الآية وما يقابلها بعد بضع آيات، وهي قول الله تعالى[عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ] مما استدل به أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة. قال الشافعي رحمه الله: "فلما أن حجبوا هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا قال الربيع: قلت: يا أبا عبدالله وبه تقول؟ قال: نعم به أدين الله"[٨].

[ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾]: يعني داخلو الجحيم، وحاصل لهم التصلية، بمعنى أنهم يحرقون، ويشوون فيها.

[ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾]: اجتمع عليهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي، أما الحسي فظاهر، وأما المعنوي، فهذا التبكيت الشديد .

الفوائد المستنبطة :

الفائدة الأولى: إثبات القدر السابق، وذلك في قوله تعالى: [كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ] فهو كتاب مفروغ منه؛ لأن الله وصفه بأنه مختوم.

الفائدة الثانية: النكير على المكذبين بالبعث.

الفائدة الثالثة: تلازم صفات السوء،فهؤلاء جمعوا أوصافاً سيئة متلازمة؛ وهي الفجور، والتكذيب، والعدوان، والإثم، فأوصاف السوء يمسك بعضها برقاب بعض.

الفائدة الرابعة:تأثير الكسب الحرام على القلب

---

[٧] صحيح مسلم (١٤٤).

[٨] شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (٥٠٦/٣) دار طيبة.

الفائدة الخامسة: شدة عقوبة الكافرين الحسية والمعنوية .